لذلك يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾[مريم] وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

وهكذا يُيئِّسهم الله من النجاة ؛ لأنهم كانوا ينتظرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدافعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب .

وهذه الوقفات التى ذكرناها للكفار يوم القيامة ، كل وَقْفة منها لها ذلة ، وكل وَقْفة لها فزعة ، وكل وقفة عذابٌ فى حدِّ ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : لو رأيت وقفاتهم وفزعهم لَشَفى غليلك ، ولعلمتَ أننا استطعنا أنْ نجازيهم بما يستحقون .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يُذل أهل بلده ويُخيفهم ، فالكل يخافه ويجامله ويتقى شرَّه ، وفى إحدى المرات قبضتْ عليه الشرطة وساقوه فى السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتغامزون به ، ونسمع فعلاً فى مثل هذا الموقف مَنْ يقول (لو شفتْ اللى حصل لفلان) ، والمعنى : رأيتَ أمراً عجيباً لا يُتخيَّل فى الذهن .

ومعنى : ﴿وَأُخِذُوا (٥١)﴾ [سبأ] أُهلكوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾[سبأ] هو موقف القيامة ومكان الحساب . يعنى : لم يترك لهم الحق سبحانه بحبوحة ، إنما أخذهم من الحساب إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾

سبحان الله ، فبعد أنْ فعلوا برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد أنْ فَزِعوا وحاق بهم العذاب يعلنون الإيمان ويقولون﴿ آمَنَّا بِهِ (٥٢) ﴾ [سبأ] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس] فردَّ الله عليه ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] يعني : هذا وقت لا ينفع فيه إيمان .

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم ، فيقول : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ[(١)] (٥٢) ﴾ [سبأ] أي : تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) ﴾ [سبأ] كلمة(أنَّى) يعني: كيف لهم الإيمان الآن ، وهم في موقف الموت أو البعث ، فقد كان الإيمان قريباً منهم في الدنيا ، أما الآن فهو أبعد ما يكون عنهم .

لذلك استخدم السياق أداة الاستفهام (أنَّى) ولها معنيان : بمعنى كيف الدالة على التعجُّب يعني : هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتي (أنَّى) بمعنى من أين كما جاء في قول سيدنا زكريا للسيدة مريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا (٣٧) ﴾ [آل عمران]

يعني : من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغي لولي الأمر أن يتعلَّم من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأتِ لهم به أن يسألهم من أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته ، وهذا احتياط واجب ؛ لأن هذا الشيء قد يكون تسللاً أو استمالة إلى معصية .

وترد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ

(١) التناوش : التناول من قرب . والمعنى : كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أُخذوا للعذاب أخذاً لا فوت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا في مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن قبول الاعتذار ، وقد بَعُد وقت التناوش ، فلا أمل في تناول أي خير لهم . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٢]

اللَّه ﴿٣٧﴾ ﴾[آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] يعنى : إياك أنْ تحسب المسائل بقدرتك ، فتقول : من أين أتتك فاكهة الصيف فى الشتاء ، أو فاكهة الشتاء فى الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته .

وكأن هذا القول من السيدة مريم قد نبّه سيدنا زكريا إلى قضية غفل عنها ، فهزَّتْه هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

عندها قال فى نفسه إذن : لماذا لا أدعو الله أنْ يرزقنى الولد بعد أنْ بلغْتُ من الكبَر عتياً وامرأتى عاقر ، فعطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القضية العقدية التى نبهته لها السيدة مريم ، وفعلاً استجاب الله له وأعطاه ولداً ، بل أكّد ذلك بأنْ سمَّاه له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبُشْرى وتأكيد لها ، ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا أبى بكر ، فقبل أنْ يموت أوصى السيدة عائشة بخصوص الميراث من بعده ، فقال لها : إنما هما أُختاك وأَخَواك . فى وقت لم يكُنْ لها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت واحدة هى السيدة أسماء، لكن بعد موت الصِّدِّيق ولدتْ زوجته بنت خارجة[1] بنتاً فصدقتْ وصية

(١) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك. تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . [انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٤٨/٨)] .

الصِّـديق ، وهو - رضى الله عنه - لم يـكُنْ علم الغـيب ، إنمـا عُلِّم ، وأنطقه الله بذلك ، لأنه لا يـعلم ما فى الأرحام إلا الله ، فـلا أحد يعلم ما فى الأرحام بذاته ، إنما يُعلَّم من الله .

وقد ورد عن سـيدنا رسول الله أنه قـال لأهل المدينة : « المحـيا مَحْياكم ، والممات مماتكم »[1] فبيَّن ﷺ أنه سيموت فى المدينة ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٣٤)﴾ [لقمان]

فـرسول الله ﷺ لم يكُنْ يـعلم غيـبـاً ، إنما عُلِّم الـغيبَ من عـلاَّم الغيوب سبحانه ؛ لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعلَّم غيب.

لذلك كثـيراً ما نرى بعض أهل الصـلاح أو الذين كشف الله عنهم الحجاب يرى السيـدة الحامل فيقول لها سَمِّ هذا الولد محـمداً ، وفعلاً تلد ولداً ، وتسميه محمداً ، هذا تسجيل للبُشْرى وإلهام من الله وتعليم لمن اختارهم الله لهذا العلم .

والناس حين يُسمون يختارون الاسم الذى يُتفَاءل به ، فيقولون : سعيد ، ذكى .. إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً ، لكن أتملك أن يكون الاسم على مُسمَّاه ؟ لا لا أحد يملك أنْ يكون ولده كما يريد ، لكن إذا كـان المسمِّى هو الله سـبحانه فـهو وحـده القادر على تحقيق المسمَّى .

لذلك لمـا وهب لسيـدنا زكريا الولد وسـماه (يحـيى) لم يفطن الناس إلى هذه التـسمـية ، وأنهـا من الله تعنى أن هذا الولد سـيحـيا ولا يموت ، فالله سماه يحيى ليحيا ، وفى هذه التسمية إشارة إلى أنه سيموت شـهيداً ، فتتصـل حياة الدنيا بحياة الشهادة ، ولو فطن قَاتلوه إلى هذا المعنى ما قتلوه .

---

(١) أخرجـه مسلم فى صحيـحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتـاب « الجهاد والسيـر » أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبـد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

لذلك لما ذهبنا لزيارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك:

أَحَمْزَةَ عَمّ المصْطَفى أنتَ سَيِّدٌ عَلى شُـهَداء الأرْضِ أجمعهمْ طُـرّا

وحَسْبُكَ من تِلْكَ الشهادةِ عصْمةٌ من المَوْتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْن بالأُخرى

وهذه القضية العقدية التى استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله الولد ، استفـادت منها السيدة مريم بعد ذلك حـين حملت بلا ذكورة ، فتـذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمـران] فاطمأن قلبها .

فكلمة (أنَّى) فى قـوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيـدٍ (٥٢)﴾ [سبأ] هى بمعنى كـيف ، ومثلها قـول السيدة مريم لمـا بُشّرت بعيسى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ (٢٠)﴾ [مريم]

ومثل قـوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا (٢٥٩)﴾ [البقرة] فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهى مسألة لا تُقال إنما تُشاهد ، ألم نقرأ قول سيدنا إبراهيم :﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾ [البقرة]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون : كيف يخاطب الله أبا الأنبياء إبراهيم ويقول له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن (٢٦٠)﴾[البقرة] ويقول هو ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾[البـقرة] ، وهـل الإيمـان إلا اطمئنان قلب إلى عقيدة ما ؟

ونقـول : الإيمان خـلاف الاطمئنان هنا ، فـالإيمان بأن الله يحـيى الموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لـم يسأل : أيوجد إحياء للموتى من الله أم لا يوجد ؛ لأنه يؤمن بقدرة الله على إحيـاء الموتى ، إنما يسأل عن كيفية ذلك ، فالاطمئنان المقصود على الكيفية ، بدليل أن الله تعالى

أظهر له آية عملية وتجربة حسِّيـة فى مسألة ذبح الطير ؛ لأن الكيفية كما قلنا لا تُقَال إخباراً إنما تُشَاهد .

فالحق سبحانه ينكر على الكفار تناولهم للإيمان فى هذا الوقت ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) ﴾ [سبأ] التناوش تناول الشىء بيُسْر ، وهم يريدون تناول الإيمان فى آخر لحظة ، وبعد فوات أوانه وضياع فرصته ، يريدون إيماناً بلا تكاليف ، وأنَّى لهم ذلك ، وهم أَبْعد ما يكونون عن الإيمان ؛ لأن محل الإيمان فى الدنيا ، فهذا القول منهم أشبه بقول أصحابهم الذين قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧) ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾

يعنى : عرض عليهم الإيمان وهم فى بحبوحة الدنيا وسعتها ، فكفروا به ، والدنيا هى محلُّ الإيمان ومحلُّ التكاليف والأوامر والنواهى ، فلما وقفوا موقف الموت أو البعث تمنَّوا الإيمان وقالوا آمنا وهم فى هذا ﴿ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾[سبأ] يعنى : يتكلمون بالظن فيما لا عِلْم لهم به ، يريدون أنْ يصلوا إلى غرضهم ، وهو أنْ ينجوا من العذاب ، لكن يأتى هذا القذف بالظن أيضاً من مكان بعيد ، يعنى فى غير محله ، وفى غير وقته ، والقرآن هنا أثبت لهم قَذْفاً ، كما أثبت للحق سبحانه قَذْفاً ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ (٤٨) ﴾[سبأ] ، لكن شتَّان بين الاثنين .

قذف هؤلاء من مكان بعيد ، والقَذْف من بعيد قَذْف لا يصيب الهدف ، وهم فى قَذْفهم لا يعلمون الغيب ، ولا يعلمون المؤثرات التى تؤثر على المقذوف ، أما الحق سبحانه فيقذف وهو سبحانه علاَّم الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شىء .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

نقول : حُلْتُ بين الخصمين يعنى : فصلْتُ بينهما ، وجعلتُ بينهما حائلاً ومانعاً من الاشتباك حتى لا يبلغ كل منهم أَشُدَّه فى المعركة ، أو ينال مراده من خَصْمه ، فالحق - سبحانه وتعالى - جعل حائلاً ومانعاً بين هؤلاء وبين ما يشتهون .

والاشتهاء طلب شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهون أنْ يطمسوا دعوة الحق ، فلم يُمكِّنهم الله من طمسها ، كما قال سبحانه :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف]

وهم يشتهون انطماس الدعوة ؛ لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظل لهم المكانة والتصرُّف ، كذلك يَشْتهون انطماس الدعوة حتى لا تقف مناهج الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

ومعلوم أن الإنسان تحاربه نفسه قبل أن يحاربه الشيطان ، لذلك قال النبى ﷺ فى رمضان : « إذا جاء رمضان فُتِحت أبواب الجنة ،

وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت[1] الشياطين[2] » ومع ذلك تحدث فى رمضان ذنوب وجرائم . إذن : هذه الذنوب وهذه الجرائم ليست عن طريق الشيطان ، إنما من طريق النفس ، كأن الله تعالى يريد أنْ يفضح العاصين الذين يتهمون الشيطان ، ويُلْقون عليه تبعة كل ذنوبهم . إذن : ليس الشيطان وحده هو وسيلة الضلال والغواية ، إنما هناك النفس الأمَّارة بالسوء .

وسبق أنْ أوضحنا كيفية التفريق بين المعصية من طريق الشيطان والمعصية من طريق النفس ، وقلنا : إذا وقفْتَ أمام معصية بعينها لا تتحول عنها مهما عَزَّتْ عليك أسبابها ، فاعلم أنها من شهوات النفس ؛ لأن النفس تريد شيئاً بعينه ، أما الشيطان فإنْ عزَّت عليك معصية أخذك إلى أخرى ، المهم أن تعصى الله على أيِّ وجه ، وبأية طريقة .

فقوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[سبأ] دلَّ على أن المسألة بالنسبة لهم كانت شهوةَ نفس ، لا مدخلَ للشيطان فيها ، لماذا ؟ لأنهم كفروا بالله وفرغ الشيطان منهم ، وإلا ماذا يريد منهم بعد ذلك ، فلم تَبْقَ إلا شهوات النفس فاشتهوا أنْ يطمسوا الدعوة ، وأنْ يذلوا مَنْ آمن ويجعلوه عبرةً لمن يفكر فى الإيمان ، لكن حال الله بينهم وبين ما أحبوا ، وسارت الدعوة على خلاف ما اشتهوا ، فمن ذُلَّ وضُرِب وأُهين من المؤمنين ثبت على إيمانه ، ومَنْ كان يفكر فى الإيمان لم يَرْهَبَهُم ، ولم يخف مما فعلوه بإخوانه المؤمنين .

---

(١) صفدت : أى شُدَّت وأوثقت بالأغلال . والأصفاد هى الأغلال وقيل : القيود . [لسان العرب - مادة : صفد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فإنْ قلت : كيف أسلم اللهُ المؤمنين الأوائل لأنْ يعذبهم الكفار ، وأنْ يُهينوهم ويُخرجوهم من أرضهم ؟ نقول : كان هذا لحكمة عالية أرادها الحق سبحانه ، وهىَ أنْ يُمحِّص إيمان المؤمنين ، بحيث لا يثبت على إيمانه إلا قوى العزيمة الذى يصبر على تحمل الشدائد ، فهؤلاء هم الذين سيحملون منهج السماء ودعوة الحق إلى العالم أجمع ، فلا بد أن يكونوا صفوة تختار دين الله وتضحى فى سبيله بكل غالٍ ونفيس .

لذلك أراد سبحانه أنْ تتزلزل هذه الدعوة فى بدايتها عدة مرات، وأن ترى بعض الفتن التى تُغربل الناس ، وتُخرِج المؤمنين فى جانب ، والمنافقين فى الجانب الآخر ، وهذا ما حدث بالفعل فى مسألة الإسراء والمعراج مثلاً ، وفى رحلة الطائف ، كلها فتن تُمحِّص المؤمنين .

لقد ضيَّق الكفارُ على المؤمنين الخناقَ ، حتى جلس رسول الله يفكر فى أمرهم ويفتش فى رقعة الأرض المعاصرة له ، أيها تناسب أصحابه ، ويأمنون فيها على أرواحهم وعلى دينهم ، فلم يجد ﷺ إلا الحبشة ، فقال لأصحابه : « اذهبوا إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم أحد عنده »(١) .

وفعلاً كان النجاشى عند ظن رسول الله ، فأكرم المؤمنين ، ورفض أنْ يُسلِّمهم إلى وفد قريش ؛ لذلك كافأه رسول الله بأنْ وكله

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١).

فى أن يُزوِّجه من أم حبيبة[1] ، وكانت لهذه الزيجة حكمة ، فالسيدة أم حبيبة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تنصَّر هناك ، وظلَّتْ أم حبيبة على إيمانها ، فدلَّ ذلك على صدْق إيمانها ، وأنها ما هاجرت لأجل زوجها ، إنما هاجرت لله ورسوله ، فكافأها رسول الله هذه المكافأة .

فالكفار اشتهوا إيذاء رسول الله وإيذاء المؤمنين مجاهرةً ، فلم يصلوا من ذلك إلى شىء ، فاشتهوا التآمر على رسول الله وقَتْله ، ودبروا له مؤامرة لقتله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال] فخيَّب الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بين شبابهم وفتيانهم ، وهو يحثُو التراب على وجوههم ، ويقول : « شاهت الوجوه»[2]

والله يقول : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ [يس]

وهكذا حالَ الله بينهم وبين ما يشتهون من المجاهرة ومن المؤامرة ، فحاولوا أنْ يسحروا رسول الله ، بأن يكيدوا له بطريقة خفية فَسَحره لبيد بن الأعصم[3] ، واستعانوا فى ذلك بإخوانهم من شياطين الجن ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) هى : رملة بنت أبى سفيان ، صحابية ، من أزواج النبى ﷺ وهى أخت معاوية ، كانت من فصيحات قريش ، ومن ذوات الرأى والحصافة ، تزوجها رسول الله بعد أن تنصَّر زوجها وهما فى الحبشة عام ٧ هجرية . توفيت بالمدينة عام ٤٤ هـ عن ٦٩ عاماً بعد ٣٤ عاماً من وفاة الرسول . [الأعلام للزركلى ٣/٣٣] .

(٢) ورد قول رسول الله هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (١/٣٦٨)، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٣) لبيد بن الأعصم يهودى من بنى زُرَيق ، وكان قد أسلم نفاقاً ، وقد كان ساحراً ، وقد جاءه اليهود فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير » انظر : فتح البارى لابن حجر العسقلانى (١٠/٢٢٦)

﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ (١٢١) ﴾[الأنعام] لكن خيَّب الله مَسْعاهم في السحر أيضاً ، ولم ينالوا من رسول الله ، ولا من منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا على أنفسكم ، فرسول الله معصوم من الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤) ﴾ [سبأ] يعني هذه القضية ليست خاصة بكفار مكة ، إنما هي سنة مُتبعة في الأمم السابقة ، ومعنى ﴿ بِأَشْيَاعِهِم (٥٤) ﴾[سبأ] بأمثالهم من الكفار في الأُمم السابقة .

والأشياع : جمع شيعة ، وهم الجماعة المجتمعة على رأي يقتنعون به ، ويدافعون عنه ، سواء أكان حقاً أم كان باطلاً ، فقوله تعالى هنا : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤) ﴾ [سبأ] دلَّ على أنهم كانوا على باطل ، أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] فهذه على الحق .

والمعنى : أنهم أُخذوا كما أُخِذ أمثالهم من الكافرين مع الفارق بين الحالتين ، فقبل رسول الله كانت السماء تتدخل مباشرة لتدافع عن دين الله وعن نبي الله ؛ لذلك حدثتْ فيهم الزلازل والخسْف والصيحة والمسخ .. إلخ .

فالأمم السابقة لم تكُنْ مأمونة على أنْ تدفع عن دين الله بسيفها، أما أمة محمد ﷺ فقد استأمنها الله على هذه المهمة ، فحملتْ السيف ودافعتْ عن دينها ؛ لذلك أكرم الله هذه الأمة ، فلم يحدث فيها خَسْف، ولا مَسْخ ولا إغراق . مما حدث لسابقيهم .

لذلك لما يئس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا عليهم :

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[١] ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

أما سيدنا رسول الله فجاءه الملَك يعرض عليه الانتقام من كفار قومه ، فيقول : لا ، لعل الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول لا إله إلا الله . وفعلاً آمن منهم كثيرون أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وكما كانوا ألدَّ أعداء الإسلام صاروا قادته الفاتحين .

وقد تألم المسلمون كثيراً ؛ لأن هؤلاء نجوْا من القتل ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام ، فصار خالد سيف الله المسلول ، وعمرو أعظم القادة الفاتحين ، ويكفى شهادة لعكرمة[٢] أنه ابن أبى جهل ، وأنه لما ضُرِب ضربة قوية فى موقعة اليرموك احتضنه خالد وهو يعانى سكرات الموت ، فقال : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله ؟

حتى الذين ظلُّوا على كفرهم من قوم رسول الله كانوا فى صالح الإسلام ، فمثلاً أبو لهب وهو عم رسول الله ، وهو الذى قال له : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ، وهو الذى قال عن رسول الله لما مات ولده

---

(١) يقال : ما بالدار ديَّار . أى ما بها أحد . والداريُّ : الملازم لداره لا يبرح ولا يطلب معاشاً . [لسان العرب - مادة دور] .

(٢) هو : عكرمة بن أبى جهل بن هشام المخزومى القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام . كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة ، وحسن إسلامه ، فشهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هـ وكان عمره ٦٢ سنة . [الأعلام للزركلى ٤/٢٤٤] . وذكر ابن سعد فى طبقاته (٩/٤٠٨) : « قُتل يوم أجنادين شهيداً » .

إنه أبتر[١] يعنى مقطوع الذرية ، لأن أولاد البنات يُنسَبون إلى آبائهم ، كما قال الشاعر[٢]:

فَإنَّمَا أُمَّهَاتُ القَومِ أَوْعِيَـةٌ   مُسْتَوْدَعَاتٌ وللأَحْسَابِ آبَاءُ[٣]

ومن العجيب أن أبا لهب قدَّم للإسلام كما قدَّم خالد وعمرو وربما أكثر ، كيف ؟ لأن الله جعله حجة على صِدْق كلام الله ، وعلى صِدْق رسول الله فيما بلَّغ عن ربه ، فلما قال لرسول الله : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟

ردَّ الله عليه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد]

فحكم الله عليه وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا ، وما يزال مختاراً حراً قادراً على إعلان إيمانه ولو نفاقاً ، ومع ذلك لم يجرؤ أنْ ينطق بكلمة التوحيد ، ولو نطق بها لَكَان له أن يقول : إن القرآن كاذب ،

---

(١) قال عطاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③﴾[الكوثر] : نزلت فى أبى لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة (ابن كثير ٤/٥٥٩) وليس هذا الابن هو إبراهيم ، فإن إبراهيم ولد لرسول الله من مارية بالمدينة المنورة وليس بمكة والأقرب أنه القاسم .

(٢) هو : محمد بن هارون الرشيد العباسى يلقب بالأمين العباسى ، خليفة عباسى ، ولد فى رصافة بغداد عام ١٧٠ هـ ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (١٩٣ هـ) بعهد منه ، خلفه أخوه المأمون بعد عامين ، كان شجاعاً أديباً رقيق الشعر مكثراً من إنفاق الأموال سيء التدبير ، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة النُّدَماء . مات عام ١٩٨ هـ [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة للأمين العباسى ، من بحر البسيط ، يقول فيها :

لا تحقرن امرءاً من أن تكون له   أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية   مستودعات وللأحساب آباء
فَرُبَّ مُعربة ليست بمنجبة   وربما أنجبت للفحل سوداء

وها أنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسـول الله . وهكذا أقام الله من هذا الكافر المعاند دليلاً على صدْق كلامه ، وصدْق رسوله .

ثم تُختم السورة بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾[سبأ] كانوا فى شك من أمر رسول الله ، ونُصْرته عليهم ، وعدم تخلِّى ربه عنه ، مع أنهم كانوا على اتصال بأهل الكتاب ، وأهل الكتاب يقرأون كتبهم على هؤلاء الكفار ويستفتحون بها عليهم ، وقد علموا منها أن عاقبة الصراع بين الرسل وأقوامهم على مَرِّ موكب الرسالة كانت للرسل ؛ لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً ثم يُسلمه أو يتخلى عنه .

وهذه قضية ذُكرت فى الكتب السابقة كما ذُكرت فى القرآن فى أكثر من موضع ، وإن كانت الكتب السابقة قد ضاعت أو حُرِّفت فالقرآن هو كتاب الله الباقى الذى تكفَّل الله بحفظه ، فهو يُتلَى كما أُنزل إلى يوم القيامة ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

لذلك سبق أنْ قلنا : إنْ هُزم الإسلام فى معركة مع غيره فاعلم أن شرط الجندية الإيمانية قد اختلَّ ، ولو نصرهم الله مع اختلال شرط الجندية فيهم ما قامتْ للإسلام قائمة بعدها ، وهذا الدرس تعلمناه فى أُحُد ، لما خالف الرماة أمر رسول الله ونزلوا من على الجبل يريدون الغنائم ، مع أن رسول الله ﷺ حذَّرهم من هذا ، وقال

لهم : لا تتركوا أماكنكم مهما حدث[1] ، فلما تركوا أماكنهم التفَّ عليهم الكفار ، وكادوا يهزمونهم .

وإنْ كان التحقيق أن الكفار لم ينتصروا فى أُحُد ؛ لأن المعركة (ماعت) ، ولو انتصر المسلمون مع هذه المخالفة لهَانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره فى أُحد وانتصرنا ، إذن : نقول : الذى هُزم فى أُحد هو مَن انخذل عن جندية الإيمان ، أمَّا الإسلام فى حدِّ ذاته فقد انتصر .

إذن : كانوا فى شكٍّ من الغاية التى ينتهى إليها رسول الله ، والشك هنا فى رسول الله لأن لديهم قضيةً عقدية هى الإيمان بوجود الله ، وأنه سبحانه الخالق لكل شىء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

والشك يعنى عدم الجزم وعدم اليقين ، وبيَّنا ذلك بأن نسَبَ الكلام فى الكون ست ، لكل ثلاث منها اتجاه ، فالكلام بداية علَّم الله سبحانه آدم الأسماء كلها ليتفاهم بها مع غيره ، فالكلام يقتضى متكلماً ومُخاطباً ، ولا بُدَّ أن يكون المخاطب على علم بمدلول الكلام ، بدليل أن العربى لا يفهم الإنجليزى ، ولا الإنجليزى يفهم العربى ، لا بُدَّ من علم بالتواضع فى اللغة ليفهم كل منهما عن الآخر .

والكلام المفيد هو الجملة التى يحسُن السكوت عليها ، بأن تعطى

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ١٠) أن رسول الله ﷺ أمَّر على الرماة عبد الله ابن جبير ، والرماة خمسون رجلاً فقال له : « انضح الخيل (ادفعهم عنا) بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبَلك » ، ولكنهم خالفوا أمر رسول الله عندما رأوا كفار قريش ينهزمون فنزلوا ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، وفطن خالد ابن الوليد لهذا ، وقد كان كافراً فى جيش الكفار ، فأغار على المسلمين وأعمل فيهم الطعن آمناً من نبل الرماة .

معنى مفيداً ، فلو قُلْت مثلاً (محمد) فهى مفـردة من مفردات اللغة لا تعطى معنى إلا بنسبة ، فتقـول : محمد كريم ، فأسندتَ الكرم إلى محمد ، وهذا معنى تام ، يحسُن السكوت عليه .

وإسناد الكرم لمحمد هو مُعتـقد المتكلّم به ، فإنْ كان لهذا الكلام وجود بالفـعل بأن وُجد شخص اسمـه محمـد ، وصفته الكرم ، فـهذا الكلام المـعتقـد جازم بالحكم والـحكم واقع ، فإنْ كـان المتكلم غـير جازم بالحكم ، متردداً فيه فهذا شك ، فالشك فيه نسبة متأرجحة بين النفى والإثبات بحيث تتساوى الكفتان ، فإنْ رجحت واحدة فهى ظن ، والأخرى المرجوحة وهم .

إذن : كم نسـبة للكلام غـير الـمجـزوم به ؟ ثلاث : الشك والظن والوهم . أما الكلام المجزوم به فإنْ كان له واقع ، وتستطيع أنْ تدلل عليه فهو علم ، وإنْ لم تستطع أنْ تُدلل عليـه فهو تقليد ، وإنْ جزمتَ به وليس له واقع فهذا جهل ، وهذه الثلاث نِسَب الكلام المجزوم به : علم ، وتقليد ، وجهل .

إذن : الكفـار جازمـون معـتقـدون فى أن الله هو الخـالق ، لكنهم شاكُّون فى مسألة البلاغ عن الله ، وأنهـا جاءت على لسان محمد ﷺ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] الشك ذاته يُوقِع فى الارتيـاب والقلق .

سورة فاطر